

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

الْقِصَصُ الدِّينِيّ

التَّحْكِيمُ

عبد الحميد جودة السحار

١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ،
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . »

(قرآن کریم)

دار القتال رهيباً في « صَفَيْن » بين الإمام عليٍّ
ومعاوية ، وأحسن معاوية أن الغلبة لعلِيٍّ ، فأمر أهل
الشَّام برفع المصاحفِ على الرِّماح ، فاستقبل أهلُ
الشَّام عليّاً بمائةِ مُصْحَفٍ ، ووضعوا في كلِّ مُجَنَّبَةٍ
مائتي مُصْحَفٍ ، ثم قام رجالٌ من أهل الشَّام
ونادوا :

— يا معشرَ العرب ، الَّلهُ الَّلهُ في نسائكم
وبنائِكُمْ . فمن للرُّومِ والأتراكِ وأهلِ فارسَ غداً إذا
فنيتم . هذا كتابُ الله بيننا وبينكم .

وخلعَ أهلُ العِراقِ ، فقالوا لعلِيٍّ :

— يا عليٍّ ، أجبِ القومَ إلى كتابِ الله ، إذ دُعيت
إليه ، وإلا قتلناكَ .

وقبلَ عليٍّ هذه الخديعةَ وهو كاره ، وجاءه أحدُ
الذين يُحِبُّونَ التحكيمَ من رجالِهِ ، وقال له :

— يا أمير المؤمنين ، ما أرى الناس إلا وقد رضوا ، وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيت معاوية ، فسألته ما يريد ، ونظرت ما الذى يسأل .

— إيتته إن شئت .

فأتاه فسأله فقال :

— يا معاوية ، لأى شىء رفعتُم هذه المصاحف ؟

— لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه ، فابعثوا منكم رجلاً ترضون به ، ونبعث منا رجلاً ، ثم نأخذُ عليهما أن يعملَا بما فى كتاب الله ، لا يعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه .

— هذا هو الحق .

وقال الناس :

— قد رضينا بحكم القرآن .

وقال أهل الشام :

— فإنا رضينا واخترنا عمرو بن العاص .

وقال بعضُ أهلِ العراقِ :

- فَإِنَّا قَدْ رَضِينَا وَاخْتَرْنَا أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ .

- إِنِّي لَا أَرْضَى بِأَبِي مُوسَى ، وَلَا أَرَى أَنْ أَوْلِيَهُ ،

وَلَكِنْ هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ أَوْلِيَهُ ذَلِكَ .

كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ ابْنَ عَمِّ عَلِيٍّ ، لِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ

أَهْلِ الْعِرَاقِ :

- لَا نَرِيدُ إِلَّا رَجُلًا هُوَ مِنْكَ وَمِنْ مُعَاوِيَةَ سَوَاءً ،

لَيْسَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْكُمَا بِأَدْنَى مِنْهُ إِلَى الْآخَرِ .

فَقَالَ عَلِيٌّ :

- إِنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَكُنْ لِيَضَعَ هَذَا الْأَمْرَ أَحَدًا هُوَ

أَوْثَقُ بِرَأْيِهِ وَنَظَرِهِ مِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَإِنَّهُ

لَا يَصْلُحُ لِلْقُرَشِيِّ إِلَّا مِثْلُهُ ، فَعَلَيْكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ

عَبَّاسٍ ، فَاَرْمُوهُ بِهِ ، فَإِنَّ عَمْرًا لَا يَعْقِدُ عَقْدَةً إِلَّا

حَلَّهَا عَبْدُ اللَّهِ ، وَلَا يَحِلُّ عَقْدَةً إِلَّا عَقْدُهَا ، وَلَا يُبْرَمُ

أَمْرًا إِلَّا نَقَضَهُ ، وَلَا يَنْقُضُ أَمْرًا إِلَّا أَمْرُهُ .

فَرَفَضُوا ذَلِكَ وَأَبَوْهُ ، فَقَالَ عَلِيٌّ فِي ضَيْقٍ :

- قد أبيتُم إلاّ أبا موسى ؟

- نعم .

- فاصنعوا ما أردتُم .

٢

ذهب رجالُ الإمامِ إلى معاوية ، لكتابةِ وثيقةِ الصُّلح ، فكتبوا :

« هذا ما تقاضى عليه أميرُ المؤمنين » .

فقال معاوية :

- بنسَ الرجلُ أنا إنْ أقررتُ أنّه أميرُ المؤمنين ثم قاتلته .

وقال عمرو :

- اكتب اسمَه واسمَ أبيه ، إنّما هو أميرُكم ، وأما أميرُنا فلا .

فخرج رجالُ الإمامِ إليه ، وأطرقَ على يفكر ، فقال له أحدُ أنصاره :

- لا تَمَحُ اسْمَ إِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ، فَإِنِّي أَتَخَوَّفُ إِنْ
مَحَوْتَهَا أَلَّا تَرْجِعَ إِلَيْكَ أَبَدًا ، لَا تَمَحُهَا وَإِنْ قَتَلَ النَّاسُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

فَأَبَى عَلَى أَنْ يَمَحُوهَا ، حَتَّى جَاءَهُ بَعْضُ أَهْلِ
الْعِرَاقِ وَقَالُوا لَهُ :

- امْحُ هَذَا الْاسْمَ .

فَقَالَ الْإِمَامُ فِي حَسْرَةٍ :

- لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، سُنَّةٌ بِسُنَّةٍ ، أَمَا
وَاللَّهِ لَعَلِّي يَدِي دَارَ هَذَا الْأَمْرِ يَوْمَ الْحَذِيثَةِ ، حِينَ
كُتِبَ الْكِتَابُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : « هَذَا مَا تَصَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو » . فَقَالَ سُهَيْلُ :
لَا أَجِيبُكَ إِلَى كِتَابٍ تُسَمِّي فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَقَاتِلْكَ ،
إِنِّي إِذَا ظَلَمْتُكَ أَنْ مَنَعْتُكَ أَنْ تَطُوفَ بَيْتَ اللَّهِ ،
وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَكِنْ اكْتُبْ « مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ

اللَّهِ « أَجَبَكَ . فَقَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« يَا عَلِيُّ ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِنِّي مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ
اللَّهِ ، وَلَنْ يَمَحُوَ عَنِّي الرِّسَالَةُ كِتَابِي إِلَيْهِمْ مِنْ مُحَمَّدِ
بْنِ عَبْدِ اللَّهِ » . فَالْيَوْمَ أَكْتُبُهَا إِلَى أَبْنَائِهِمْ ، كَمَا
كُتِبَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى آبَائِهِمْ
سُنَّةً وَمَثَلًا .

وَكُتِبَتْ وَثِيقَةُ الصُّلْحِ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ
أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَمَعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، قَدْ
نَزَلَا عِنْدَ حُكْمِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ ، فَإِذَا لَمْ يَجِدْ أَبُو مُوسَى
الْأَشْعَرِيُّ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي الْقُرْآنِ حُكْمًا ،
حَكَمَا بِمَا يَجِدَانِ فِي السُّنَّةِ الْعَادِلَةِ غَيْرِ الْمَفْرُوقَةِ ، وَعَلَى
عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ وَتَبِيعَتِهِمَا وَضَعُ السَّلَاحِ إِلَى انْقِضَاءِ
هَذِهِ الْمُدَّةِ ، وَهِيَ مِنْ رَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ ، عَلَى أَنَّ
يَرْجِعَ أَهْلُ الْعِرَاقِ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَأَهْلُ الشَّامِ إِلَى
الشَّامِ ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ الْاجْتِمَاعُ إِلَى دَوْمَةِ
الْجَنْدَلِ .

وَوَقَعَ عَلَى الْوُثِيقَةِ ، وَقَامَ رَجُلٌ إِلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَ لَهُ :

- يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا إِلَى الرَّجُوعِ عَنْ هَذَا
الْكِتَابِ سَبِيلٌ ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لِأَخَافُ أَنْ يَوْرِثَ ذُلًّا .
فَقَالَ عَلِيٌّ :

- أَبْعَدَ أَنْ كُتِبَ لَهُ نَقْصُهُ ؟ إِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ .

وَنَدِمَ أَنَسٌ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيِّ عَلَى قَبُولِ
التَّحْكِيمِ ، بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَّانِ ، كَمَا هِيَ عَادَتُهُمْ ،
فَنَادَوْا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَفِي كُلِّ نَاحِيَةٍ :

- لَا حَكَمَ إِلَّا لِلَّهِ ، الْحَكْمُ لِلَّهِ يَا عَلِيُّ لَا لَكَ .
لَا نَرْضَى أَنْ يَحْكُمَ الرِّجَالُ فِي دِينِ اللَّهِ ، إِنْ اللَّهَ قَدْ
أَمْضَى حُكْمَهُ فِي مَعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ ، أَنْ يُقْتَلُوا
أَوْ يَدْخُلُوا فِي حُكْمِنَا عَلَيْهِمْ . وَقَدْ كَانَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ
حِينَ رَضِينَا الْحُكْمَيْنِ ، فَرَجَعْنَا وَتُبْنَا ، فَارْجِعْ أَنْتَ
يَا عَلِيُّ كَمَا رَجَعْنَا ، وَتُبْ إِلَى اللَّهِ كَمَا تُبْنَا ،
وَالَا بَرِّئْنَا مِنْكَ .

ما كان عليٌّ ممن ينقضُّ عقداً ، فقال لهم :

- وتحكم ! أبعد الرضا والميثاق نرجع ؟ أو ليس الله تعالى قال : « أوفوا بالعقود » ؟ وقال : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون » ؟ وأبى عليٌّ أن ينقض عهده ، وأبى هؤلاء الرجال إلا أن يخرجوا عليه ، ولذلك سُموا « الخوارج » وعاد الإمام إلى الكوفة ، وفارقه الخوارج .

٣

اجتمع عمرو وأبو موسى في دومة الجندل ، وحضر الناسُ لستمعوا قولَ الرجلين ، فقال عمرو لأبي موسى :

- يا أبا موسى ، إن قال قائلٌ إن معاويةَ من الطُّلقاء (الذين عفا النبيُّ عنهم بعد فتح مكة) وأبوه رأسُ الأحزاب ، لم يبايعه المهاجرون والأنصار

فقد صدق ، وإذا قال إنَّ علياً آوى قتلَةَ عثمان ،
 وقتل أنصارَه يوم الجمل ، وبرز على أهل الشام
 بصِفِّين فقد صدق ، وفينا وفيكم بقيَّة ، وإن عادتِ
 الحربُ ذهب ما بقي ، فهل لك أن تخلَّعهما جميعا ،
 ونجعلَ الأمرَ لعبدِ الله بنِ عمر ، فقد صحبَ رسولَ
 الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يسط في هذه
 الحربِ يدا ولا لسانا ، وقد علمت من هو ، مع
 فضله وزهده وورعه وعلمه .

كان أبو موسى لا يعدلُ بعبدِ الله بنِ عمرَ أحدا ،
 لمكانه من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه
 من أبيه ، فقال مسرورا :

— جزاك الله بنصيحتك خيرا .

واجتمع رأيهما على ذلك ، فقاما أمام الشهود ،
 فقال عمرو :

— يا أبا موسى ، ناشدتك الله تعالى ، من أحقُّ
 بهذا الأمر ، من أوفى أو من غدَر ؟

- من أوفى .

- يا أبا موسى ، نشدتك الله تعالى ، ما تقول في عثمان ؟

- قُتل مظلوما .

- فما الحكمُ فيمن قُتل ؟

- يُقتل بكتاب الله تعالى .

- فمن يقتله ؟

- أولياء عثمان .

- فإنَّ الله يقول في كتابه العزيز : « ومن قُتل

مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » ، فهل تعلمُ أن

معاوية من أولياء عثمان ؟

- نعم .

قال عمرو للقوم :

- اشهدوا :

فقال أبو موسى للقوم :

— اشهدوا على ما يقول عمرو : قم يا عمرو ،
فقل وصرح بما اجتمع عليه رأيي ورأيك ، وما اتفقا
عليه .

فقال عمرو في دهاء :

— سبحان الله ! أقوم قبلك وقد قدمك الله قبلي
في الإيمان والهجرة ، وأنت وافد أهل اليمن إلى
رسول الله ، ووافد رسول الله إليهم ، وبك هداهم
الله وعرفهم شرائع دينه وسنة نبيه ، وصاحب مغام
أبي بكر وعمر ؟ ولكن قم أنت فقل ، ثم أقوم
فأقول .

فقام أبو موسى فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم

قال :

— إن خير الناس للناس خيرهم لنفسه ، وإنني
لا أهلك ديني لصالح غيري . إن هذه الفتنة قد
أكلت العرب ، وإنني رأيت وعمرًا أن تخلع عليًا

ومعاوية ، ونجعلها لعبدِ اللهِ بنِ عمر ، فإنه لم يبسط
في هذه الحرب يداً ولا لساناً .

ثم قام عمرو وقال :

- إِنَّ هَذَا قَدْ قَالَ مَا سَمِعْتُمْ ، وَخَلَعَ صَاحِبَهُ ، وَأَنَا
أَخْلَعُ صَاحِبَهُ كَمَا خَلَعَهُ ، وَأُثْبِتُ صَاحِبِي مُعَاوِيَةَ ،
فَإِنَّهُ وَلِيُّ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَالطَّالِبُ
بِدَمِهِ ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِمَقَامِهِ .

فَقَالَ أَبُو مُوسَى فِي غَضَبٍ :

- مَالِكٌ ، لَا وَفَّقَكَ اللَّهُ ، غَدَرْتَ وَفَجَرْتَ ، إِنَّمَا
مِثْلُكَ كَمِثْلِ الْكَلْبِ ؛ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ
تَزْكُ يَلْهَثُ .

فَقَالَ لَهُ عَمْرُو :

- إِنَّمَا مِثْلُكَ كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا .

وبلغ الإمام خديعة عمرو لأبي موسى ، فقام في الكوفة ، فخطب الناس ، فقال :

— ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حَكَمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما . وأحيّا ما أمات القرآن ، وأتبع كل واحد منهما هواه بغير هُدى من الله ، فحكمّا بغير حُجة بينة ، ولا سنة ماضية ، واختلفا في حكميهما ، وكلاهما لم يرشد ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالحوا المؤمنين . استعذبوا وتأهبوا للمسير إلى الشام .

وكتب إلى الخوارج أن يوافقوه ليسيروا معه لقتال معاوية ، ولكن الخوارج رفضوا ، وأراد الإمام أن يسير بأهل العراق إلى أهل الشام ، ولكن أهل العراق لم يُطيعوه . بل طلبوا منه أن يقاتل الخوارج ، فسار حتى نزل المدائن ، والتقى بالخوارج عند النهروان ، ودارت بينه وبينهم معركة رهيبة ،

وانتصر الإمام عليهم ، ثم سار بالناس حتى نزل
 بالنخيلة ، فعسكر بها ، وأمر الناس أن يلزموا معه
 عسكرهم ، ويوطنوا أنفسهم على الجهاد ، حتى
 يسروا على عدوهم من أهل الشام ، فأقاموا معه
 أياما ، ثم رجعوا يتسللون ويدخلون الكوفة ،
 وتركوا عليا وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير ،
 فأطرق الإمام حزينا ، فقد يقن أن أنصاره قد
 انفضوا من حوله .